

16 - السيدة أم ورقة بنت نوفل



الأنصارية حافظة القرآن

اسمها أم ورقة، والدها عبد الله بن الحارث بن عويمر بن نوفل، وقيل لها: أم ورقة بنت نوفل، نسبة إلى جدها الأكبر.

تعد أم ورقة رضي الله عنها من أعلام نساء الأنصار، وكانت صوامة، قوامة، حافظة لكتاب الله الكريم، وهي من فواضل النساء في عصرها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها كثيراً مع بعض أصحابه رضي الله عنهم، وكان إذا أراد زيارتها يقول لهم: «انطلقوا بنا نزور الشهيذة»، وليست هذه المكرمة الوحيدة التي خص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أم ورقة، فلما استأذنته في أن يجعل لها مؤذناً خاصاً، فعل، وتمّ الفضل حين أذن لها بأن تؤمّ جماعة النساء في بيتها، وهذا شرف كبير خصها بها دون غيرها، وتقدير لم تحظ به امرأة سواها.

قَالَ: وَكَانَتْ قَدْ قَرَأَتْ الْقُرْآنَ، فَاسْتَأْذَنْتِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أَنْ تَتَّخِذَ فِي دَارِهَا مُؤَذَّنًا، فَأُذِنَ لَهَا.

حَدَّثَ الْحَسَنُ بْنُ حَمَادٍ الْحَضْرَمِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فَضِيلٍ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ جُمَيْعٍ، عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَلَادٍ، عَنِ أُمِّ وَرَقَةَ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ - رضي الله عنها - قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَزُورُهَا فِي بَيْتِهَا، وَجَعَلَ لَهَا مُؤَذَّنًا يُؤَذِّنُ لَهَا، وَأَمَرَهَا أَنْ تَوُمَّ أَهْلَ دَارِهَا، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَأَنَا رَأَيْتُ مُؤَذَّنَهَا شَيْخًا كَبِيرًا⁽¹⁾.

(1) رواه: أبو داود/كتاب: الصلاة/باب: إمامة النساء/برقم: (500).

كانت أم ورقة من الذاكرات الله كثيراً، ومن التاليات لكتاب الله حق تلاوته، ومن المتدبرات العاملات بأحكامه.

تمنيها الشهادة

وحين أجمعت قريش أمرها، وعقدت عزمها على قتال المسلمين في بدر، خرج منادي رسول الله ﷺ يدعو المسلمين جميعاً إلى جهاد المشركين، عملاً بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ (٧٣)﴾ [التوبة: 73]، ولبى المسلمون النداء زرافاتٍ ووحداناً، وجأوا إلى رسول الله ﷺ شاكي السلاح متاهبين، طامعين بإحدى الحسينين: النصر أو الشهادة، وفي كل خير!

وجاءت إليه أم ورقة تريد أن تنفذ قول الله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [التوبة: 41].

حَدَّثَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُمَيْعٍ قَالَ: حَدَّثَنِي جَدَّتِي، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَلَادِ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ أُمِّ وَرَقَةَ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَزُورُهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، وَأَنَّهَا قَالَتْ يَوْمَ بَدْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتَأْذُنُ فَأَخْرُجُ مَعَكَ، أَمْرُضٌ مَرَضًاكُمْ، وَأَدَاوِي جَزَحَاكُمْ، لَعَلَّ اللَّهَ يُهْدِي لِي شَهَادَةً قَالَ: «قَرِي، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يُهْدِي لَكَ شَهَادَةً» (1).

وفي رواية أبو داود عن أم ورقة بنت عبد الله بن نوفل الأنصارية أن النبي ﷺ لما غزا بدرًا قالت: قلت له: يا رسول الله، ائذن لي في الغزو معك، أمرض مرضًاكم، لعل الله أن يزرقني شهادة قال رسول الله ﷺ: «قري

(1) رواه: أحمد/كتاب: من مسند القبائل/باب: حديث أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصاري/برقم: (26022).

فِي بَيْتِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْزُقُكَ الشَّهَادَةَ»، قَالَ: فَكَانَتْ بَعْدَ ذَلِكَ تُسَمَّى: الشَّهِيدَةَ⁽¹⁾.

لقد أمرها رسول الله ﷺ أن تبقى في بيتها فما عساها أن تفعل؟ لقد سمعت وأطاعت، إنها حافظة القرآن، والقرآن يقول: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: 80].

وعادت أم ورقة إلى بيتها، ودخلت في محرابها، وراحت تدعو المسلمين، أن يمتن عليهم بالنصر المبين، ولما حضرت الصلاة دعا مؤذنها النسوة لصلاة الجماعة في بيت أم ورقة، فتبادرن إليها عَجَلَاتٍ، حتى إذا قُضيت الصلاة رفعت أم ورقة يديها إلى الله ضارعة تدعوه بخشوع، والنسوة يؤمنن على دعائها.

وعلى أرض بدرٍ كان رسول الله ﷺ يدعو ربه ويستنجزه وعده له بالنصر المبين، واستجاب الله تعالى دعاء نبيه ﷺ، واستجاب دعاء أم ورقة المؤمنة النَّقِيَّةِ، رطبة اللسان بذكر الله، الوفية بعهد ربها، المخلصة لدينها ولرسولها ﷺ، المحبة للخير في الأقوال والأفعال، والناهية عن الشر في سائر الأحوال.

وأخذت سيوف الإيمان تحصد رؤوس الشرك والضلال، وزلزلت قريش في بدر زلزالاً شديداً، وكان يوماً على الكافرين عسيراً، لم تغب شمسها حتى استقرت رؤوس زعمائها، وجثت سفهائها في قعر القلب، ولقي أبو جهل، وعقبة بن أبي معيط، وابنا ربيعة عتبة وشيبة، وأمّية بن خلف شراً مستطيراً جزاء ما أسأروا إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَانْقَمَتْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47].

وعاد رسول الله ﷺ بجند الله من بدر، وهم يهللون ويكبرون،

(1) رواه: أبو داود/كتاب: الصلاة/باب: إمامة النساء/برقم: (500).

وأكاليل الغار فوق جباههم، ورايات النصر قد عانقت السماء، وفقدت قريش يومئذ سبعين سفيهاً، وأسر لها سبعون، وكان أكثر ما ألمها أنها لم تستطع حمل أحد من قتلاها، ولا سيما زعماؤها وكبراؤها، لتدفنهم في مكة، لأن أمر رسول الله ﷺ بالقائهم في بئر بدر حال دون ذلك.

وكان سرور أم ورقة بانتصار المسلمين غامراً، وانطلق لسانها بالشكر لله تعالى على إنجاز وعده بنصر المؤمنين، وراحت تستمطر الرحمات على الشهداء، وتنتظر وعد رسول الله ﷺ لها بالشهادة، فإن شوقها لم رزقوا الشهادة لشديد.

أهل القرآن أصحاب الليل

ونظرت أم ورقة في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ [الإسراء: 78، 79]، فوجدت فيه فوائد يعزُّ حصرها، وعزمت على ألا تفوتها نفحاتها، وجعلت تقوم الليل، وترفع صوتها بالقرآن، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمر بابها وهو ذاهب إلى صلاة الفجر، فيسُرُّ بسماع تلاوتها، ويقول: هذا صوت خالتي أم ورقة! فهنيئاً لك قيامك، وتهجُّدك، وتلاوتك أيتها المؤمنة التقية، وأبشري بجزاء ربك الذي لا يضيع أجراً، ولا يغمط حقاً، ولا يظلم أحداً، لقد بين لك هذا الجزاء حين قال: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدَّرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: 54، 55].

ويعود عمر رضي الله عنه من المسجد، ويسمع صوت أم ورقة وهو ما يزال يترنم بأي الذكر الحكيم، وما تنفك أم ورقة مقيمة على هذا الحال، دون كليل أو ملل.

وقال لها بعض الصحابة الذين كانوا يزورونها مع رسول الله ﷺ: أتدريين من أنت يا أم ورقة؟ وماذا يقول عنك رسول الله ﷺ؟ قالت: لا، بالله عليكم أنبئوني ماذا يقول عني رسول الله ﷺ؟ فقالوا: قال: «هَيَّا بِنَا إِلَى بَيْتِ

الشَّهيدَةَ»، وتطيب نفسها بما تسمع، وتسعد أعماقها بذلك، وترى كأن الدنيا قد باتت ملك يمينها.

ولقد أدت تلاوة القرآن الكثيرة إلى صقل نفسها ومَلء قلبها بالرحمة والرقه والحنان، فكانت تُغدق منها على من تعرف ومن لا تعرف ممن يدخل عليها من المهاجرات والأنصاريات لحضور الصلاة ومجالس الفقه التي كانت تديرها لهؤلاء المؤمنات.

تحقق البشارة واستشهادها

وإزاء هذه المهام الملقاة على عاتق أم ورقة كان لا بد لها أن تستعين بمن يخدمها، ويساعدها في تأمين خدمات البيت وأعبائه، وجاءت أم ورقة بـغلام وجارية لهذا الغرض، وجرت الأمور على أحسن ما يرام، فأم ورقة تفق عليهما وتكرمهما، وهما يؤديان واجباتهما كما ينبغي لها أن تؤدى، ولكن كما قال الشاعر السموءل:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَزْتَدِينُهُ جَمِيلٌ
وكما قال المتنبي:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

ولكن من كان يصدق، بل من كان يتخيل، أن امرأة وديعة تقية، تحب الخير لكل الناس، صوامة، قوامة، حافظة لكتاب الله، عطوفة، شفوقة، يمكن أن تكون غرضاً لجريمة شنعاء يدبرها ضدها الغلام والجارية اللذين أحسنت إليهما، إلى درجة يزهبان فيها روحها الطاهرة، ويسكتان في صدرها الحياة؟

لا شك أن اللؤم الذي جُبلأ عليه هو الذي دفعهما إلى ارتكاب ما ارتكبا دون وازع من دين، ففازت أم ورقة بما وُعدت به من الشهادة على لسان رسول الله ﷺ، وأمّا هما فقد باءا بسخط من الله، ولهم في الآخرة عذاب أليم، لقد أفسدا عليها دنياها حين سلباها حياتها، بيد أنها أفسدت عليهما آخرتهما حين دفعت بهما - بما كسبا - إلى جهنم وبئس المصير.

وتوضاً عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وجهّز نفسه ليخرج إلى صلاة الفجر كما يفعل كل يوم، ومرّ بباب أم ورقة، فلم يسمع صوت تلاوتها، وأصاخ سمعه فلم يجد لها حسّاً، وكرّر التنصت فلم يَحْظَ بطائل، وارتاب عمر أمام هذا الواقع، وحقّ له أن يرتاب، لقد عودته أم ورقة على سماع قراءتها عند الفجر، فما بالها اليوم قد تغيّر حالها، وتخلّت عمّا دأبت عليه؟.

وحثّ عمر خطاه إلى المسجد، وعجّل في صلاته، ودهش الصحابة رضي الله عنهم لما رأوا من قلقه، فابتدروهم بالحديث قبل أن يسألوه عمّا يشغله، فقال: ما سمعت قراءة خالتي أم ورقة آنفاً، وأرى أن في الأمر شيئاً، فهلمّوا معي إلى دارها، لنستطلع الخبر اليقين.

ولما وصلوا إلى الدار أقبل عمر على الباب وراح يناديها: يا خالتي أم ورقة، أين أنت؟، ولكن ما من مجيب، واشتد قلق عمر وأصحابه رضي الله عنهم ، وكرر نداءه لها، ولما لم يجبه أحد، رأوا أنه لا بُدّ لهم من اقتحام الباب، ونفذوا ذلك في الحال، ثم تفرقوا داخل الدار، كلّ يفش عن أم ورقة في جانب، ولم يطل بحثهم حتى وجدوا جثّة ملفوفةً بقطيفةٍ من القماش في إحدى زوايا المنزل، ولما حسروا عن وجهها علموا أنها أم ورقة وقد فارقت الحياة، وضّعت عمر رضي الله عنه لذلك المشهد، وذهل الصحابة لما رأوه.

أفي ظل إمام العدل، الذي يضرب التاريخ بعدالته المثل تُرتكب مثل هذه الجريمة الشنعاء، ومع أرق قلب بين النساء؟ مسكينة أنت يا خالة! وويل للجنة الأثمين الذين نزعت الرحمة من قلوبهم حين أسكتوا أنفاسك!!.

وشقّ على عمر رضي الله عنه ما نزل بأم ورقة وحزّت في نفسه تلك النهاية الأليمة التي انتهت إليها إمامة النساء، ودُفن هذا المنصب معها فلم تفر به امرأة بعدها، ولكن حزن عمر سرعان ما تبدّد، فقد ذكر بشارة رسول الله صلى الله عليه وآله لها بالشهادة، فقال من فوره: صدق الله وصدق رسوله صلى الله عليه وآله حين كان يقول: «انظّلوا نرور الشهيذة!!»، وكفى بأم ورقة فضلاً أن يروي عنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله.

